

أحاديث الإثنين لسانت بيث

بمستم:

الدكتور على درويش

مدرس الأدب الفرنسى بجامعة عين شمس

ما أصعب العثور عليه ! ... يقول الأستاذ « بيث مورو » الأستاذ بالسوربون (Pierre Moreau) : « لو أن هناك إنساناً يمكن أن نجده فى أعماله ، وفى نفس الوقت يفلت منا دائماً ، لكان هذا الإنسان هو سانت بيث » ! ... كان هذا الرجل كلفا بدراسة النفوس البشرية واكتشاف خباياها ، وكان يبلغ دائماً مايريد فى هذا المجال بفضل مواهبه الفذة ؛ ومن يدرى ، فربما حدا به شعوره بهذه المواهب إلى أن يصعب عن عمد مهمة النقاد الذين سيعنون بعد وفاته بدراسته حتى لا يتوصلوا إلى مثل ماكان يتوصل هو إليه فى يسر : أليس هو القائل لهم : « ... لاتسألونى عما أحب وعما أعتقد ، ولا تتغلغلوا فى أعماق نفسى » ؟ ... ثم أيسْتبعد أن يكون قد نهج نفس هذا النهج الذى أوصى به النقاد من بعده « أيها النقاد الفضوليون ، الذين لاتكلمون ... لنكن - بطريقتنا الخاصة - مثل ذلك الطاغية الذى كان له فى قصره ثلاثون غرفة لايعرف أحد أبداً فى أيها ينام » ! .. نعم إن سبرغور هذا الرجل أمر عسير ، وإن الدراسات العميقة التى خُصصت له لتدل جميعاً على أن حياته حدثٌ مطرد الأهمية فى تاريخ الأدب ،

فى عام ١٩١٠ كتب « جول تروبا » (Jules Troubat) ، آخر سكرتير « لسانت بيث » (Sainte-Beuve) : « لقد قال لى سالت بيث ذات يوم : « إنك سوف تنهك حتى نهاية حياتك فى تصحيح تجارب المطبعة » ، والواقع أن حياتى لم تمتلئ إلا بحياته طوال الأربعين عاماً التى انقضت على وفاته ، ذلك لأن الإنسان مايكاد يدخل حياة هذا الرجل حتى يقبع فيها ، وكأنها انسكلوبيديا حية يمكن أن تغذى جيلاً كاملاً من الجياع » ... أربعين عاماً ؟ ! - بل خمسين ! ، فند عدة أعوام توفى « جان بونرو » (Jean Bonnerot) بعد أن عكف على دراسة سانت بيث ونشر رسائله خلال نصف قرن من الزمان . لقد سمى نفسه بحق « سكرتير سانت بيث بعد مماته » والغريب أن مامن أحد توفر طويلاً على دراسة سانت بيث يستطيع أن يزعم أنه فهمه فهماً جيداً ، وأنار جميع الجوانب الغامضة فى حياته وشخصيته ! صحيح أنه يقول : « لو أن على أن أحكم على نفسى لقلت : « إن سانت بيث يتذرع دائماً بتصوير شخص من الأشخاص ليصور لنا جانباً من جوانب شخصيته هو » ! ، وصحيح أنه يوجد فعلاً فى إنتاجه ؛ ولكن

وبالرغم من أنها تثبت أنه يختلف كثيراً عن الأسطورة التي نسجت حوله ، فإن النظرة الموضوعية المدققة تقود دائماً إلى هذه النتيجة المؤلمة المشفقة معا : إن سانت بيثف لم يُنصف بعدُ كل الإنصاف !

ولد سانت بيثف في الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٨٠٤ بمدينة « بولني سيرمير » (Boulogne-sur-Mer) ، وهي ميناء يقع على بحر المانش ؛ وكان أبوه قد توفي قبل ذلك بعدة أشهر ، فكفلته أمه وعمته . وشب في جو تحميم عليه الكتابة فأدركته « الشيخوخة » وهو في سن الصبا ، فضلاً عن أنه - كما يقول - كان قد ذاق طعم الحزن وهو في بطن أمه . . . وتلقى علوم المرحلة الابتدائية والمتوسطة في مسقط رأسه ، ولكنه كان « يدرك تماماً ما ينقصه » فوفق في إقناع أمه - بالرغم من ضالة مواردها - بأن ترسله إلى باريس ليستكمل تعليمه . . . ويرحل إلى العاصمة في عام ١٨١٨ ، وينضم إلى معهد « لاندري » (Pension Landry) حيث يجود العلوم التي تلقاها في أواخر سني حياته « ببولني » (Boulogne) ويلتحق في نفس الوقت بكلية شرلمان (Collège Charlemagne) حيث يعيد كذلك ما تلقاه من قبل . . . ويدفعه التعطش للمعرفة إلى الذهاب كل مساء إلى « الآتينية » (L'Athénée) حيث يتابع من الساعة السابعة إلى الساعة العاشرة الدروس التي تُلقى في علم وظائف الأعضاء ، والكيمياء ، والتاريخ الطبيعي . . . وفي هذه الفترة يظهر نزوعه إلى دراسة الطب ، فتأتي أمه لتقيم معه في باريس . . . ولو أنه اختار الحقوق بدلا من الطب لما جاء نقده بمقوماته الحالية التي سنعرّفها بعد حين . . . ولو أن القدر شاء له أن يزاوِل مهنة الطب بدلا من مهنة النقد لكان مثلاً أعلى للطبيب في جميع البلاد والعصور : يقول : « لقد اخترت الطب لأنه نافع في كل زمان وكل مكان . .

نافع حقيقةً إن زوول بهمة وذكاء . . فكثيراً ما يمنح أكثر من الصحة ؛ يمنح السعادة . . . ذلك لأن هناك أمراضاً كثيرة تأتي من النفس ؛ والمواساة المعنوية هي خير علاج لها . . ثم إن الكسب المادي الذي يحصل عليه الطبيب من الأغنياء لا يسمح فحسب بعلاج الفقراء بدون مقابل ، وإنما أيضاً بأن يقتسم معهم ما يناله منه . . يسمح له بأن يأخذ من البعض ليعطي البعض الآخر ، وبأن يصبح همزة وصل فعالة بين المستويات الاجتماعية المتعارضة ، وبأن يقضي إلى حد ما على اللامساواة التي توجد في المجتمع في حين أن الطبيعة تأبأها » على أن سانت بيثف إذا كان قد خسرته مهنة الطب (بالرغم من دراسته الطب) فقد كسبه الأدب ؛ كتب يوماً إلى صديقه السويسري ج . أوليفيه (Juste Olivier) يقول : « لقد كنت أريد أن أرى ، وحين رأيتُ ما أريد لم أجِد لدى الشجاعة على مزاوله هذه المهنة لأن الجانب العملي كان ينفرنى » .

وفي الوقت الذي كان سانت بيثف يواصل فيه دراسة الطب أنشأ أستاذه القديم « ديوبا » (Dubois) صحيفة « لوجلوب » (Le Globe) التي لم تلبث أن غدت لسان حال المدرسة الرومانسية الوليدة . . . ويعهد « ديوبا » إلى تلميذه اللامع بكتابة بعض المقالات النقدية القصيرة . . وتظهر هذه المقالات بتوقيع « س . ب » . . ويظل الأستاذ يوجه تلميذه ويأخذ بيده حتى يأتي يوم يقول له فيه : « إنك الآن تحسن الكتابة ، وتستطيع أن تسير وحدك » . . . وفي أوائل عام ١٨٢٧ يخصص سانت بيثف - استجابة لرغبة ديوبا - مقالين لديوان فيكتور هوجو « Odes et Ballades » ؛ ولم يكن الناقد قد رأى الشاعر بعد ؛ ويُعجب هوجو بكاتب المقالين ، ويذهب لمقابلته في الصحيفة فلا يجده . . وبعد يوم واحد أو يومين يقصد سانت بيثف إلى بيت فيكتور ليرد إليه زيارته : بداية صلة وثيقة ستصل إلى مرتبة

والتجنس بالجنسية السويسرية ، وأنه سافر إليها فعلاً في أواخر عام ١٨٣٧ ولم يمكث فيها إلا حتى صيف العام التالي .. عام دراسي واحد ملئ بالنشاط ، صرفه بعيداً عن باريس ومشاكلها أستاذاً للأدب الفرنسي في جامعة لوزان أو في « أكاديمية لوزان » كما كان يطلق عليها في ذلك الحين .

ويمضي عامان (١٨٤٠) : إن رفاق الكفاح في مجال الأدب - الذين عرفهم منذ عام ١٨٢٤ - يحتلون الآن مناصب سامية في الدولة .. بعضهم صاروا وزراء في حين أنه يعاني شظف العيش . وبالرغم من أنه بلغ السادسة والثلاثين من عمره إلا أن ضالة موارده تجبره على الاكتفاء بغرفتين صغيرتين من غرف الطلبة المتواضعين . ويفكر بعض أصدقائه القدامى تيرو فيكتور كوزان وريموزا (Thiers, Rémusat, Victor Cousin) في معالجة هذا التناقض الصارخ بين سخاء المواهب وتقدير الحياة فيوفقون في تعيين سانت بيث أميناً بمكتبة « مازارين » (Bibliothèque Mazarine) ... ثم ينتخب في ١٨٤٤ عضواً بالأكاديمية الفرنسية ، ويشاء القدر أن يلقي خطبة الاستقبال زوج « أديل » ، فيكتور هوجو ! كانت جلسة مثيرة للفضول ، ولكن لم تلبث أن سادها الوقار الذي يليق « بغريمين » سابقين هما الآن من أبرز كتاب العصر ومفكره .

ثم تندلع نيران ثورة فبراير ١٨٤٨ التي يزعم بعض المناهضين لسانت بيث أنها أصابته بهلع متعدد الألوان .. والحقيقة هي أنه كان يتابع أحداثها باهتمام المواطن الواعي والمفكر المستنير ، ولم يغادر فرنسا بعد ستة أشهر من حدوث هذه الثورة إلا بدافع من الحرص على انتهاز فرصة مواتية لتحسين ظروف معيشته ، فلقد عين أستاذاً للأدب الفرنسي بجامعة « لياج » (Liège) ببلجيكا .. عام آخر خصيب

الأخوة ، ثم ستنفصم عراها لتستحيل إلى قطيعة مريرة .. سانت بيث يقرض الشعر ويرنو إلى بلوغ المحد عن طريقه ؛ وهو يرى في هوجو أستاذاً يمكن أن يعينه على تحقيق هذا الطموح ! ... وهوجو يستعد لتزعم المدرسة الرومانسية الناشئة ؛ وهو يرى في سانت بيث من المواهب ما يغري باجتهاده إلى صف الحركة الجديدة ليصبح ناقدًا ومروج مبادئها ! .. وتقوى الصلة باطراد بين الرجلين .. ويذهب شارل (Charles-Augustin de Sainte-Beuve) إلى بيت فيكتور كل يوم مرة أو مرتين ؛ ويطيب له أن يمكث فيه ساعات متصلة سواء كان صديقه حاضراً أم غائباً ! ؛ ويأتي يوم يؤثر فيه - ويتمنى - أن يجده غائباً ! فما أمتع الحديث مع زوجته « أديل » (Adèle) ! إن بينهما تجاوباً نفسياً ينبع من أعماقهما الكثبية ، وهو يستطيع باعترافاته البائسة البائسة أن يتسلل إلى طيات نفسها بفضل ما يثير فيها من انفعالات يظهر صداها على أسارير وجهها ، أو ترجمه عباراتها التي تجيء تارة مشفقة مواسية ، وتارة أخرى مشبعة باعترافات استدرجتها اعترافات ! .. ويأتي يوم يضيق فيه الحب بسرّه فيبوح به للزوج ! .. ولكن عجباً : الزوج يُبقى على صداقة المتيّم بزوجه ، وهذا الأخير يسخط عليه ويناصبه العداء ! .. ربما لأنه يجد فيه الغريم الذي يستأثر بمفاتيح تلك التي يحبها هو ؛ وربما لأنه يجد في جو القطيعة ما يبرر خيانة « الصداقة » القديمة : إن المدقق في سلوك « سانت بيث » وعقده النفسية لا يستبعد على كل حال هذين الاحتمالين معاً ... المهم أن هذه الصلة بارتفاعاتها وانخفاضاتها ، بين « الصديقين » قد أثرت أعماق التأثير في نفسية « سانت بيث » ، وفي مشاريعه في الحياة ، وبالتالي في إنتاجه .

والشيء الذي يعيننا الآن هو أن « سانت بيث » فكر جديداً في وقت من الأوقات في الرحيل إلى « لوزان »

جداول الدراسة « بالكوليج دى فرانس » بين أسماء الأساتذة المحاضرين ! .

ويظل « سانت بيث » محاضر في مدرسة المعلمين العليا قرابة أربعة أعوام يستأنف بعدها الكتابة في صحيفة « لوكونستيتسيونيل » (Le Constitutionnel) . إن أبحاثه منذ الآن يُطلق عليها « أحاديث الاثنين الجديدة » وفي عام ١٨٦٥ يعينه نابليون الثالث عضواً بمجلس الشيوخ فيقف مواقف مشرفة بدفاعه عن حرية الفكر ؛ وهنا يستعيد شعبيته في الحى اللاتيني : كتب إليه « فرانسوا لالييه » (François Lallier) نisابةً عن زملائه طلبة الـ « إيكول نورمال » يقول : « إنه لابد من شجاعة في مجلس الشيوخ للدفاع عن استقلال الفكر وحقوقه ؛ إلا أن المهمة بقدر ما تكون شاقة تصبح مجيدة ... » .

ويقبل صيف عام ١٨٦٩ فتشند وطأة المرض على « سانت بيث » : لونه يشحب ، وصوته يخفت ، والألم يستبد به ، ومع ذلك فهو ينصت إلى قراءات سكرتيره « تروبا » ، ويملي عليه ردوداً رقيقة مقتضبة على ما يتلقى من رسائل ، ويتحدث مع زواره في قضايا الأدب والحرية . ثم تزداد حاله سوءاً في الخريف ، وتحين منيته في الثالث عشر من أكتوبر ... وفي بيته يشرح طبيبان جثته فيدركان أن ما أفضى إلى الوفاة خراج في البروستاتا وحصوات ثلاث في المثانة ، إحداها في حجم بيضة الدجاجة والأخرى أصغر قليلاً ، ويُسقل الجثمان في جنازة يسير فيها جمهور غفير يقدر بستة آلاف شخص من بينهم الكتاب والفنانون والأطباء والعمال ، بل والطلبة أيضاً وكانوا قد أجروا في الحى اللاتيني مداولات انتهت بتقريرهم الاشتراك في جنازة الكاتب الكبير بالرغم من أنه كان عضواً في مجلس الشيوخ ! ... كان « سانت بيث » متواضعاً حتى في مماته ! فقد كان قد

بالإنتاج خرج منه بدراسة قيمة عن « شاتوبريان » (Chateaubriand) كما خرج من السنة الدراسية التي حاضر خلالها في أكاديمية لوزان بدراسة دسمة عن مفكرى « بور رويال » وعلمائه (Port-Royal) . وما يكاد يعود إلى باريس في سبتمبر عام ١٨٤٩ حتى يبدأ في نشر سلسلة أبحاثه التي تعرف في تاريخ الأدب بأحاديث الاثنين . كانت هذه « الأحاديث » تنشر خلال ثلاثة أعوام في صحيفة « لوكونستيتسيونيل » (Le Constitutionnel) ثم تولت نشرها ابتداء من عام ١٨٥٢ صحيفة « لومونيتور » (Le Moniteur) الموالية للحكومة .

وتعاون « سانت بيث » مع صحيفة « لومونيتور » (Le Moniteur) يسىء إلى مصالحه ويؤثر تأثيراً سلبياً في شعبيته : ففي نفس العام (١٨٥٢) يعينه الوزير فورتول (Fortoul) أستاذاً للشعر اللاتيني « بالكوليج دى فرانس » (Collège de France) في الكرسي الذى كان يشغله « تيسو » (Tissot) . ولكن الطلبة يتظاهرون ضده ، ويحدثون في المدرج يوم افتتاح محاضراته كثيراً من الصخب والضجيج ... ولا ييأس « سانت بيث » فيأتى من جديد ليلقى محاضراته الثانية ، ولكنه يستقبل بالهتافات العدائية وصيحات الاستنكار التي سمع مثلها في محاضراته الأولى ! ... لا جدوى إذن في الإصرار ! .. لم يخسر الأدب شيئاً على كل حال ، فقد نشر « سانت بيث » في عام ١٨٥٧ دراسة عن فيرجيل استمد مادتها من تلك المحاضرات التي لم تُلَقَ ! ... على أن الحكومة حرصت على أن تعوض الناقد الكبير عما فقدته في « الكوليج دى فرانس » ، وأن تواسيه على ما وجده فيها فعينته في مدرسة المعلمين العليا (Ecole Normale Supérieure) ، كان ذلك في عام ١٨٥٧ ، والغريب أن اسمه - حتى ذلك التاريخ - ظل مدرجاً في

يرحل المرء إلى حيث لا يرى دائماً سوى إطارات من السعادة لا يملك أن يضع فيها لوحته ؟ ... حياته سلسلة من الشقاء والإذعان الذى هو فى الواقع نوع من اللامبالاة الهدامة ، يقول : « لم يكن لى ربيع ولا خريف ، وإنما صيفٌ جاف ، لافح ، كتيب شاق التهم كل شئ » ... وهو لا يئن من عقده النفسية فحسب ، وإنما أيضاً من ظلم الناس ولا سيما الحائقين عليه بسبب نقده الحر الشريف : يقول : « ... إني أخشى الوجوه الجديدة ، بل ولا أبحث عن جميع من عرفتهم ، فأنا لم أصادف دائماً فى هذا العالم وبين الجمهور الرأفة إزاء آرائى وإزاء شخصى » ... الحق يقال إنها حال تدعو إلى النفور من المجتمع ، و « سانت بيث » يقول وهو فى السادسة والثلاثين من عمره : « إن كل فن السعادة - إن صح التعبير - يكون فى سنٍّ معينة فى قدرة المرء على الانعزال عن الناس فى الوقت المناسب . »

على أن « الناس » رجالٌ ونساء ، وهو يستطيع أن ينغزل عن الرجال ، ولكنه لا يقوى على الابتعاد عن النساء !.. لماذا ؟ لأنه لا يكل فى بحثه عن الحب ؛ وإذا كانت عقدة دمايته تعجز عن تثبيط عزمته ، فلأن شعوره بمواهبه العقلية الفذة يمدده بشحنة متجددة من الإصرار .. إنه يريد أن يقنع نفسه بأنه رغم كل شئ قادر على غزو قلوب النساء ! ذكاؤه حاد ، وحديثه طلى جذاب ، وثقافته من أوسع وأندر الثقافات ، وهو يثير فعلاً إعجابهن ، ويتوصل فعلاً إلى غزوهن ، ولكن غزو العقول فهن لا القلوب ! « ماري داجو » مثلاً (Marie d'Agoult) تقول عنه « إنه من هؤلاء الرجال الذين يتركون وراءهم أينما ساروا خطاً من نور » ، وتستميله لزيارتها بإلحاح ، إلا أنها هى نفسها التى تكتب إلى « فرانز ليزت » (Franz Liszt) « سيرابض فونشو » (Fonchaud) عندى من الساعة الرابعة حتى الساعة السادسة ليحول

أملى على « لاکوساد » (Lacaussade) عبارتين أو ثلاث أوصاه بألا يقول غيرها على قبره : « وداعاً يا سانت بيث ، وداعاً يا صديقنا ، وداعاً » ؛ حتى كلمة الشكر كان قد أوصى بها هى الأخرى : « أيها السادة الذين رافقتموه إلى هنا ، لكم الشكر باسمه .. أيها السادة ، لقد انتهت الجنائز » ، قالها « لاکوساد » بمجرد أن وُضع الجثمان فى القبر .. كثيرون بكوا على الراحل العظيم ، وأكثر منهم هؤلاء الذين أحسوا على الأقل بمثل ما عبر عنه الروائى الكبير « فلوير » (Flaubert) حين كتب إلى صديق له ليلة الكارثة : « ... مع مَنْ يمكن الآن التحدث فى الأدب ؟ - إنه كان يحبه ؛ وبالرغم من أنه لم يكن صديقاً لى بالمعنى الدقيق فإن موته يحزننى بالغ الحزن . إن كل ما يتعلق بالقلم فى فرنسا أصيب بفقدته بخسارة لاتعوض . »

* * *

ولكن أخسر « سانت بيث » نفسه بموته شيئاً ؟ أيفضل الحياة لوأنه بُعث من جديد ؟... لا ، من غير شك ! فماذا كان يغريه فى حياته بالبقاء فيها ؟ : قائمة ممعنة فى القصر ، ورأس أصلع ، وخليفة قبيحة إن لم تكن دميعة ، وتعاسة مقيمة منذ الطفولة ، وخيال حزين ، وقلق ممض دائم ، وحساسية مرهفة إلى حد المرض ، وعقل لا يريح لأنه من أوسع وأعمق عقول العصر ، وإخفاق فى أعز الأمنى : فى الحب ، وفى بلوغ المجد عن طريق الشعر لا النقد ، وفى مشاريع الزواج ! هذا هو « سانت بيث » الذى لم يكن فى وسعه أن يقول مثل الدكتور « فيرون » (Véron) « انى افتقر إلى الحرمان ! » ، وإنما قال على لسان الشخصية التى ترمز إليه « جوزيف ديلورم » (Joseph Delorme) إنه قاسى من البرد ومن التعب بل ومن الجوع ؛ والذى أطلق يوماً هذه الصيحة المفعمّة بالمرارة : « فيم يجدى السفر ؟ فيم يجدى أن

وجوده بين « سانت بيف » وبين مصارحته بجبي « وحسنا تفعل ؛ فإن « سانت بيف » لا يوجد أمام امرأة إلا و « يلتهب » وبخيل إليه أنه يحبها ، ويبثها هذا « الحب » إن وجد إلى ذلك سبيلاً .. والحب عنده لا يجيئ من قلبه ، وإنما ينبع من كل جسمه ! وهنا الخطورة ، وهنا سخرية القدر بالنسبة لرجل لا يغري النساء فيه إلا عقله الجبار ! سعيه وراء إنصاف نفسه المعقدة المعذبة يجعله ينشد الحب ، والحب يقترن بالرغبة ؛ والرغبة المتعطشة دواما تصبح سلوكا في الحياة يقول : « إنني - مثل سليمان وابقور - تغلغل في الفلسفة عن طريق الفلسفة ؛ وهذا أفضل من التغلغل فيها بمشقة عن طريق المنطق كما فعل هيجل وسبينوزا » . وهو يفهم سر هذا ولا يضيره التصريح به : كتب إلى « أديل كوريار » (Adèle Couriard) وهو في الثالثة والخمسين من عمره : « لقد كان لي دائماً قلب ككلب أمين بحث عن سيد له ، وعثر عليه في ظروف متباعدة ونادرة ثم فقدته . لقد عشت دائماً حيثما اتفق ، اللهم إلا بحياة عقلي الذي سيطرت عليه دون قلبي » ... بل إن عجزه عن السيطرة على قلبه كان يُضعف أحيانا من سيطرته على عقله . وبمعنى آخر كان إحساس قلبه بؤثر أحيانا في أحكام عقله ، يقول : « إنني في الواقع رجل يتميز بالدقة والإيجابية البالغتين ، وحيثما لم يتدخل الحب جاءت نظرتي صادقة . »

كتب « سانت بيف » ذات يوم إلى « جورج صاند » : « إن الإنسان ليس أبداً شيئاً كله ، حتى حين يفعل الشر » ، وقد كانت حياته في مجموعها أفضل بكثير - كما قلنا - من الأسطورة التي نسجت حولها .. وهو يحلل نفسه بهذا التواضع الجرم : « إنني كما أحكم على الناس أحكم على نفسي .. إنني أقل مزايا مما يظن .. إنتاجي - وهو هزيل القيمة - أقسى من عقلي .. تعثرت كثيراً في شبابي .. صرفت وقتاً طويلاً

قبل أن أكتشف طريقتي السليم .. اعتنقت المذهب تلو المذهب .. لست عقلاً فذاً ، ولكنني اكتسبت ذوقاً واخترت مما كان يمر أمامي .. لدى بعض الرقة ، ولكنني أتميز خاصةً بالحساسية ... لأنها وتر أناحت لي ظروف طيبة أن أمس بها حساسية آخرين .. ولكن ما أضرأ كل هذا ! ... لتريث في تصديق هذا الحكم بكل عناصره ، فاقصد كان هذا الرجل يشعر بكيانه ، ولكنه أساء تقييم الكثير من مظاهر نبوغه . ويزيد من تشويه الحقيقة تواضعه المفرط ، ويقينه من أن النقد نوع من أنواع الأدب الثانوية .. كان تواقاً إلى مجد الشعراء المرموقين ، وحين خذل العصر أشعاره أصيب بخيبة أمل لم تفارقه حتى مماته ... نعم إن الحقيقة تطمس الكثير من جوانب حكم « سانت بيف » هذا على نفسه ؛ وأبرز مواطن الضعف في هذا الحكم طريقة تقدير صاحبه لعقله ، وإنه لتقدير مجحف . وما كان ينبغي أن يفرط « سانت بيف » في تواضعه على هذا النحو وهو الذي قال عنه « شيرير » (Edmond Scherer) « إنه يفهم كل شيء » ، وقال عنه « جان بريفو » (Jean Prévost) « إنه أذكى رجال القرن الذي عاش فيه » ... وصحيح أنه كان متقلباً ، وأنه القائل عن نفسه : « قبل أن يموت هذا المخلوق الذي يسمى باسمي ، كم من الرجال يكونون قد ماتوا في » ! كان نقده في البداية نقد معركة دافع فيه عن مفاهيم الرومانسية ، واصطبغ بالسانسيونية بعض الوقت ، ثم بكاثوليكية « لامنيه » (Lamennais) المتحررة ، وبعد التحرر من الرومانسية شاع فيه الذوق الكلاسيكي بتأثير الصالونات التي كان الكاتب يغشاها بدافع من طموحه إلى عضوية الأكاديمية ؛ وفي عهد الامبراطورية تزعم « سانت بيف » نوعاً من الكلاسيكية الجديدة ... وصحيح أن أحكاماً له على هذا الكاتب أو ذاك تبدو لأول وهلة متعارضة ، ولكن المدقق فيها يدرك أنها

ثم عن وحدة في التفكير على كل حال ؛ وسانت بيف نفسه يعلق على ما يقال في هذا الشأن بقوله : « لست أدري إذا كنت قد تغيرت إلى الحد الذي يزعمونه في إعجابي بهؤلاء أو أولئك الكتاب في عصرنا .. ولكني أعرف جيداً أنني لم أغير في المبادئ التي كانت تحملني على الإعجاب بهم .. بقي أن أعرف أينما حاد أكثر من غيره ، هم أم أنا » .

ولكن ما هي سبل « سانت بيف » في اكتشاف حيدهم ؟ - إنه أولاً مرهف الحساسية كما فهمنا من تحليله لنفسه وكما نعرف فعلاً ... وهو من « هواة النفوس » : يقول : « لقد عشت دائماً عند الآخرين ، وبحث دائماً عن عشي في نفوسهم ، ولن أغير الآن » .. وهو ذو فضول متأجج دوماً : يقول عنه « كوفيليه فلوري (Cuvillier Fleury) » : « لقد وُلد باحثاً ... إن له نفساً محبة للاستطلاع كما للناس عيون » ... ولماذا نذهب بعيداً ؟ ؛ إن « سانت بيف » نفسه يتحدث في مكان ما عن « فضوله ، وعن رغبته في أن يرى كل شيء ، وفي أن ينظر إلى كل شيء عن كثب ؛ وعن اللذة الفائقة التي يحسها حين يعثر على الحقيقة النسبية لكل شيء ... » . كتب يوماً إلى « مدام دار بوثيل (Mme d'Arbouville) » يقول إنه لم يكف « عن رؤية لوح الخشب الذي تغطيه السجادة ، أو تحت السقف المذهب » ... ويعاوده تواضعه فيكتب إلى « أديل كوريار (Adèle Couriard) » : « لست إلا متأملاً في الطبيعة في ذاتها ... في تنوعها الشديد . لست إلا واحداً من أبسط تلاميذ مدرسة « جوته » (Goethe) » ؛ قال هذا بعد أن جاوزت سنه الخمسين ، ولو أن « جوته » سمعه لشعر بمزيج من الزهر بنفسه والإكبار لتواضع هذا الناقد العظيم الذي كان هو قد أعجب به يوم كتب أول مقالين له عن فيكتور هوجو في صحيفة « لوجلوب » ، في عام ١٨٢٧ ...

كان عمر « سانت بيف » ثلاثة وعشرين عاماً ! ... وهو يقدس شيئاً اسمه الحقيقة جعل منه دعامةً لاستقلال تفكيره وقلمه ، وكان شعاره الذي نادى به هو « الحقيقة ، الحقيقة وحدها » ؛ ولكن متى أرضت الحقيقة جميع الناس ؟ ! إنها إن كانت مبدأ الناقد جرت عليه الخصومة تلو الخصومة ، وخلقت ضده ضغائن لا تنتهي ... ولكن « سانت بيف » يؤثر الخصومات والضغائن على مجاملة أصحابها مجاملةً تمقتها استقامته ولا ترتضيها نزاهته في مهنته : يقول في مذكراته الخاصة : « لقد أغضبت كثيرين في حياتي بسبب ما في من جانب طيب ، وبسبب تمسكي بالاستقامة والحقيقة ، واستقلالي في الحكم » ، كما يقول : « إن العقول العميقة الحقة تشعر بأشد الحرج وهي تؤدي دورها في هذا العالم : إن قالت ماترى وما هو حق اعتبرها الناس شريرة » !

كيف كان « سانت بيف » يتوصل إلى قول الحق ؟ - بالعمل المضني الطويل ، يقول : « لا توجد سوى طريقة واحدة لفهم الناس فهما جيداً ، هي ألا نتعجل في الحكم عليهم ، وأن نعيش معهم ، وأن نتركهم يفسرون أنفسهم بأنفسهم ويوضحونها يوماً بعد يوم لتبرز في النهاية معالمها في نفوسنا نحن : : . وكذلك بالنسبة للكتاب الراحلين : اقرأوا ، اقرأوا .. دعوا أنفسكم على سجيتهما ، فسوف ينتهي الأمر بأن ترسم شخصياتهم ويُسَمع كلامهم » ... والعمل الطويل في حياة « سانت بيف » يقترن بالدقة المتناهية والأمانة العلمية التي لا تعرف التهاون في أبسط التفاصيل : سجلات المكتبة الوطنية بباريس تثبت أنه كان يستعير أحياناً أكثر من خمسة وعشرين مؤلفاً لإعداد مقال واحد من مقالاته الأسبوعية ، أحاديث الاثنين ... ورسائله تزخر بالرغبات التي تم عن باحث أصيل : هنا يطلب إيضاح تفصيل من التفاصيل ، وهناك يلتبس ضرواً يعينه على التحقق من واقعة من

الوقائع ... الخ . ويحدث هذا خاصة حين يتناول البحث واحداً من الأحياء : إنه يعتمد - في التثبت من الحقيقة - على شهادة الموثوق بهم من المعاصرين بحيث يحىء بحثه تحقيقاً أدبياً يتميز بالموضوعية والنزاهة : يقول : « إننى على استعداد لأن ألوذ بأقصى أقاصى العالم من أجل تفصيل دقيق ؛ شأنى فى ذلك شأن عالم الجيولوجيا الذى يسعى وراء قطعة من الحصى » : وظل يجهد نفسه فى العمل حتى أواخر أيام حياته ، لأنه كان يجد فيه وسيلة للفرار من واقع وجوده الكثيب المنكوب : يقول فى شيخوخته : « منذ أعوام أقيمتُ بنفسى فى الدراسة العنيدة فراراً من العواطف التى كنت لا أزال فريسة لها بالرغم من فوات الشباب ؛ إن العمل الهادىء البطيء لا يكفينى لأن أهدى نفسى ؛ وإنما لابد لى من أن أعمل بعنف ... وهكذا كان يهبط فى بئر أول كل أسبوع ولا يخرج منها إلا بعد أن يفرغ من إعداد «حديث الاثنين» ! : « فى بداية الأسبوع ، من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء ، وأحياناً إلى يوم الخميس يتوفر على القراءة ... أيام مرهقة يقضيها أمام مكتبه المشحون بالأوراق قارئاً ، ومدوناً أفكاره بالقلم فى هوامش الصفحات أو على قصاصات متناثره بجانبه ، أو ملخصاً بخطه العصبى فقرة من الفقرات ، أو مسجلاً مقارنة من المقارنات ، أو مثبتاً صورة من الصور ، أو مسرعاً بتدوين كل خطة البحث لمقال من المقالات على ظهر مظروف رسالة كان قد تلقاها فى الصباح .

وحين تتعب عيناه كان سكرتيره يقرأ له بصوت مرتفع بطيء بينما يدون هو ملاحظاته . وفى يوم الجمعة يصيغ المقال ، ولا يسمح لأى زائر بأن يدفع بابه .. ويظل يعمل خلال جلسة شاقة تتصل حتى المساء ، وقد تطول حتى صبيحة يوم السبت . ويرسل المقال إلى الصحيفة ، ويطلع ، وتدخل عليه بعض

التنقيحات أثناء تصحيح التجارب : تنقيحات ترمى إلى التخفيف من حدة تعبير من التعابير أو إيضاح تفصيل من التفاصيل .. ثم يُعطى الإذن بالطبع يوم الأحد ، وهنا يستطيع « سانت بيث » أن يحرر نفسه بضع ساعات يقوم خلالها ببعض الزيارات ، أو يرد على بعض الرسائل ؛ وقد يذهب فى المساء إلى المسرح ... وفى اليوم التالى يبدأ أسبوعه الجديد على نفس الوتيرة ! ... أسلوب فى الحياة يختصر الحياة ! تُرى كم ناقد من النقاد ، فى قرن كامل من الزمان ، يفعل مثل « سانت بيث » ؟ كان يتحسر على نفسه بينما يأبى تعديل ذلك الأسلوب .. فلقد أراد دائماً أن يغذى عقله ليكون قادراً على تغذية عقول الناس . .

تناقض عجيب ! : العقل يلهم ، والجسم يذبل ! لنستمع إلى « سانت بيث » قبل وفاته بخمسة أعوام وهو يقول لصديقه « ليسكور » (Lescure) : « إنى أحق (وأنا أعترف لك بهذا سرّاً) لا على الجمهور ... وإنما على مجتمعنا بشكله الراهن ، لأن رجلاً يعمل ويؤلف منذ أربعين عاماً (هذا الرقم صحيح) يجد نفسه مقضياً عليه بأن يواصل إلى ما لا نهاية ، دون أن يفتن أحد إلى أنه يبذل كل أسبوع مجهوداً عضلياً مضنياً ، ويعرض نفسه لأن يتفجر ذات يوم عصباً من أعصابه ... إن جسدى يتوتر كل أسبوع بصورة بشعة ... مأساة ! .. ولكن ألا يرجع إليها الفضل فيما أضافه « سانت بيث » إلى تراث الإنسانية ! .. يا لأنانية الأجيال إزاء العباقر ! .

* * *

انتاج « سانت بيث » يتميز بالضخامة والتنوع ؛ وهو يحتوى على عدة دواوين من الشعر ؛ وقصة ، ودراسات نقدية ، فضلاً عن رسائله ومذكراته التى نشرت بعد وفاته .

* « كتاب الحب » Le Livre d'Amour (١٨٤٣)

وجميع مقطوعاته تتعلق بقصة غرامه بزوجة فيكتور هوجو ؛ وقد نشره « سانت بيث » سرّاً في عدد محدود من النسخ وزع بعضها على بعض النساء المقربات إليه . وتقول الوصية التي كتبها في عام ١٨٤٣ إنه احتفظ بمائتي نسخة وأربعة . . . ويعتبر نقاد كثيرون أن هذا الكتاب نقطة سوداء في تاريخ « سانت بيث » لأنه يسجل تفاصيل ما كان يجدر بصاحبه أن يذكرها ؛ إن عاره مستمد من العار الذي ألحق به سمعة « أدبل » في هذه الأشعار .

وكيفما كانت جوانب الضعف في إنتاج « سانت بيث » الشعرى ، والنقد العنيف أو المترفق الذي وجهه إليه ، فإن له مظاهره المبتكرة : يقول فيكتور هوجو وهو يستقبله عضواً في الأكاديمية الفرنسية : « لقد استطعت في ضوء خافت أن تكتشف إحساساً هو إحساسك ، وأن تخلق قصيدة حزينة هي قصيدتك . لقد منحت بعض خطرات النفس تعبيراً جديداً .. إن شعرك - وهو دائماً أليم وغالباً عميق - يبحث عن جميع هؤلاء الذين يتعذبون . . وأنت تتواري حين تبهم فكرتك ؛ ذلك لأنك تأتي أن تكدر صفوهم حين تذهب للقائهم . من هنا جاء شعرك خجولاً عميقاً معاً .. إنه يمس نياط القلب الخفية . . . حكم عميق مجرد من الهوى .

ثانياً : القصة :

* « قصة » « لذة » Volupté (١٨٣٤) ، الوحيدة التي كتبها « سانت بيث » : قس يروي قصة شبابه - وهو في طريقه إلى أمريكا - لتكون قدوة لأحد الشباب . . كان يتماً من أسرة نبيلة . . أحب فتاة صغيرة ثم أحس أن حبه أهدأ من أن يرضيه . . وخلال رحلة صيد تعرف بالسيد « دي كوآن » de Couaën ثم صار صديق أسرته ...

* « حياة » جوزيف ديلورم « وأشعاره وأفكاره » (١٨٢٩) Vie, poésies et pensées de Joseph Delorme وهذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - ليس شعراً كله ؛ وفيه يحتجب « سانت بيث » بتواضع وراء « جوزيف ديلورم » ، زاعماً أنه لم يفعل أكثر من أن جمع أشعاره وأفكاره ، مدعياً أنه كان طالباً بالطب ، ومات بالسل . . وظهور « سانت بيث » متنكراً يثبت أنه خشي أن يطالع الجمهور في مستهل حياته الأدبية ؛ والشئ البارز في هذا الكتاب هو أن صاحبه لم يعثر بعد على طريقه ، ويبدو روائياً أكثر منه شاعراً .

* « المواساة » Les Consolations (١٨٣٠) : ديوان ألفه « سانت بيث » بوحي من أواصر الصداقة التي كانت تربطه بأسرة فيكتور هوجو . . كانت هذه الصداقة - في بدايتها على الأقل - الشئ الذي أشاع السلوى في نفس « سانت بيث » وعوضه عن العزلة الطويلة التي أوحى إليه فيما مضى بكتابة « جوزيف ديلورم . . . » . وفي هذا الديوان ينتقل « الشاعر » من الصداقة إلى الحب ، ويتقرب عن طريق الحب إلى الدين . إنه يشهد على العواطف التي كان « سانت بيث » يغذيها في نفسه لإزاء « أدبل هوجو » .

* « أفكار أغسطس » Pensées d'Août (١٨٣٧) ظهر هذا الديوان في باريس بعد سفر « سانت بيث » إلى لوزان إثر تعيينه أستاذاً بجامعة . وهو خلسو من الأفكار الرومانسية ونغماتها الحزينة التي تميزت بها أشعار « جوزيف ديلورم » . . يقول « سانت بيث » : « إن الإنسان لا يستطيع أن يبذل نفسه بلحمه ودمه للجمهور » ، من هنا نجد أن هذه الأشعار تفتقر إلى الصراحة والشاعرية . . يزع بعض النقاد إلى دراسة تأثيرها في شعراء كبودلير صاحب ديوان « ازهار الشر » .

du théâtre français au XVIe siècle) وهي أول إنتاج نقدي له قيمته لسانت بيثف ، وفيه ينصف القرن السادس عشر الذي طغى على مجده مجد القرن السابع عشر (عصر الكلاسيكية) .. على أن أهمية هذا البحث التاريخية تفوق أهميته الذاتية لأن سانت بيثف حرص فيه - بعقلية توفيقية - على إدماج الحركة الرومانسية الوليدة في التراث القومي ، بأن جعل منها امتدادا لحركة الرينيسانس .. حين كتب « سانت بيثف » هذا الكتاب كانت هذه الحركة الرومانسية قد حققت نجاحها الأول على أيدي كتّاب مثل لامرتين (Lamartine) و « ألفريد دي فيني » (Alfred de Vigny) و « فيكتور هوجو » (Victor Hugo) الذي نشر بيانها (مقدمة كرومويل) في عام ١٨٢٧ ؛ وإذا « سانت بيثف » يندد بالقواعد الكلاسيكية ، ويطالب بحرية قريحة الشعراء ، مستشهدا بشعراء القرن السادس عشر الذين واتهم الجسارة فنقلوا أشكال الشعر اليوناني واللاتيني والاطالي ، وابتكروا أشكالاً متعددة غيرها ... وفي عام ١٨٤٣ نشر المؤلف طبعة جديدة من كتابه : كان قد فقد تحمسه للرومانسيين فعقد مقارنة بين شعر رونسار وأتباعه (مدرسة « لابلاد » La Pléiade) وبين الشعر الذي ظهر قبيل عام ١٨٣٠ اتضح منها أنه عدل موقفه واعتدل في إعجابه بإزاء أصدقائه القدامى .

* « بور رويال » (Port-Royal) (١٩٤٠ - ١٨٥٩) : استمده « سانت بيثف » من الأبحاث العميقة التي عكف عليها من أجل محاضراته في جامعة لوزان ... أراد فيه أن يحدد تأثير « بور رويال » في الكتاب الكلاسيكيين ، ولا سيما في بسكال وراسين وبوالو ، فاستحالت دراسته إلى تأريخ للأفكار ، واتسعت فشملت تاريخ المجتمع الفرنسي كله في القرن السابع عشر ... من ستة أجزاء : ظهر الأول منها في عام ١٨٤٠ ولم يُنشر الأخير إلا في عام

ونشأت بين الشاب « آموري » Amaury وبين زوجة دى كوان de Couaën صداقة عاطفية حرصت السيدة فيها - بالرغم من بعض الاعترافات العاطفية - على ألا تتجاوز حدود واجباتها .. ويشعر الشاب بأن حبه صار جارفاً .. وترحل السيدة إلى باريس لتكون على مقربة من زوجها الذي قبض عليه ، فيصحبها الشاب .. وهناك يندفع اندفاعاً في الحياة الباريسية الصاخبة .. إنه ينكب على المحون بحثاً عن اللذة التي تحرّمه منها السيدة de Couaën .. وهو حين يشبع رغبته يدرك أن حبه قد تضاعف ... ثم يقع في حب امرأة أخرى هي Mme R... إنها ذكية ، وهي تنلهى برومانتيكيتها ، وتضطره إلى أن يجي كل يوم حين ينتصف الليل ليحيطها من تحت النافذة ! ... أحب Amaury إذن ثلاث مرات أخفق فيها جميعاً .. إنه يؤثر حياة الرهينة ... ثم يعود يوماً إلى ضيعة « دى كوان » de Couaën فيلتقي من سيدتها - التي كان قد أحبها فيما مضى - اعترافها ويحضر اللحظات الأخيرة من حياتها ...

هذه القصة كتبها « سانت بيثف » حين كان في أوج حبه لمدام فيكتور هوجو . إنها اعتراف .. وهي حدث هام في تاريخ حياته ، وفي العصر الرومانسي كذلك .. ولقد نجحت في عصرها ، ولكن تضاعف تأثيرها بعد ذلك ... و « سانت بيثف » لا يُظهر فيها مواهب قصصية ممتازة .. وهي تُمل بسبب شدة بطء الحركة فيها .

ثالثاً : الدراسات النقدية :

* وأهمها من غير شك « أحاديث الاثنين » التي سنفردها الشطر التالي من هذا البحث .

* « صورة تاريخية ونقدية للشعر والمسرح الفرنسيين في القرن السادس عشر » (١٨٢٨) Tableau historique et critique de la poésie et

* « صور أدبية » (Portraits Littéraires) (١٨٦٢ - ١٨٦٤) : نُشرت على شكل مقالات في عام ١٨٤٤ ، ثم جمعت في مجلدين ، وبعد ذلك في ثلاثة مجلدات (١٨٦٢ - ١٨٦٤) بعد أن أُضيفت إليها مقالات أخرى من نفس النوع كانت قد نُشرت بعد ظهور الطبعة الأولى من الكتاب . وهذه المقالات تبرز مواهب « سانت بيث » في التحليل وقدرته الفائقة على سبر أغوار النفس البشرية ... وفيها يتحدث كذلك عن نفسه ، ويقول عبارته الشهيرة التي مؤداها أنه « يزاول التاريخ الطبيعي للنقد » .

المذكرات :

* « سمومي » (Mes Poisons)

نشرها « فيكتور جيرو » (Victor Giraud) في عام ١٩٢٦ .. و « جيرو » هو صاحب هذه التسمية التي يستمدّها من عبارة وردت « لسانت بيث » : « هنا ألوان » في حالة سموم ، إن أذبتها قليلا حصلت على ألوان ! .. و « سانت بيث » يحس هو نفسه بلذاعة هذه الصفحات إذ يقول إنها زادُ ثأره ... لأنه يبدو فيها بلا رحمة ، وتبلغ قسوته حد الفظاظ أحيانا . تحتوى على أفكاره وملاحظاته عن الكتاب المعاصرين وأعمالهم .. لم تكن معدّة للنشر ولذا فيمكن أن نفاجئ فيها سانت بيث بكل حساسيته وبطريقته التي ليس بها أدنى تكلف في التعبير : يقسو على بلزك ، ويشكك في صدق لامرتين وهو وجو وكان فيما مضى قد أزجى إليهما أرق أنواع المديح ، ويتحدث عن صداقته وعن حبه الوحيد (أديل هوجو) ، كما يتحدث عن حياته القاسية البائسة .. ثم هو يحكم على طبيعة النقد الذي يزاوله ، يقول : « إن النقد بالنسبة إلى نوع من التحول (métamorphose) ؛ إني أحاول فيه أن أخفى في الشخصية التي أقدمها » .

١٨٥٩ : .. تبدو فيه بجلاء حياة « سانت بيث » العقلية والتأملية ورغبته في الايمان ، يقول الكاتب في أواخر حياته : « إن « بور روابال » أعمق الكتب التي كتبها وأكثرها ذاتية . وإن الذي ينظر فيها نظرة مدققة يجدني بكل كياني ، على سجيتي وبجميع نزعاتي » ... يعتبر بعض النقاد « بور روابال » أحسن ما كتب « سانت بيث » ، بل ويذهب ناقد كبير في القرن التاسع عشر - هو « برونتيير » (Brunetiere) - إلى أبعد من هذا : يقول بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد سانت بيث ، في الحفل الذي أقيم في مسقط رأسه : « إني أكاد أرى في « بور روابال » نموذجا لكتابة تاريخ الأدب ، وربما أروع ما كُتب في النقد الفرنسي في القرن التاسع عشر » .

* « صور نسائية » (Portraits de Femmes) (١٨٤٤) :

وهي صور بأدق ما في الكلمة من معان ، يعرض فيها « سانت بيث » باقة من أشهر النساء مثل مدام دي ستال ، و مدام دي سيفينييه ، و مدام رولان ، و مدام دي لافاييت .. الخ Mme de Sévigné, Mme de Staël, Mme de La Fayette, Mme Roland . الخ : يبرز شخصياتهن ، ويتغلغل في أعماقهن محاولا أن ينتزع منها أخص أسرارهن ، بل محاولا أن يكتشف من خلاهن سرّاً واحداً هو سر النساء جميعاً .. وهو في دراسته لهذه السيدة أو تلك يعطى دراسة مركزة للمجتمع الذي عاشت فيه .

* « صور المعاصرين » (Portraits Contemporains) وهذا المؤلف يحتوى - كما يدل على ذلك اسمه - آراء نقدية في بعض الكتاب المعاصرين « لسانت بيث » . وفي الوقت الذي يعترف فيه الكاتب بالأواصر التي تربط بينه وبينهم ، يدلل على أنه مستقل عنهم استقلالاً عقلياً مطلقاً .

« سموى » وثيقة حية عن المجتمع الأدبى فى القرن التاسع عشر :

* آراء وحكم (Pensées et Maximes) :

و« مورييس شابلان » (Maurice Chapelan) هو الذى جمعها ونشرها بهذا الاسم فى عام ١٩٥٤ .. وهذا الكتاب يتضمن المذكرات والآراء التى كان « سانت بيث » ينشرها فى فترات متباعدة فى آخر هذا المؤلف أو ذاك من مؤلفاته ؛ وهو مذكّل بـ « سموى » التى أشرنا إليها منذ حين :

الرسائل :

(Correspondance générale de Sainte-Beuve)

وقد تولى « جان بونرو » (Jean Bonnerot) جمعها وترتيبها تبعاً للسنوات ، واستطاع أن ينشر منها أكثر من عشرة مجلدات ضخمة ... إنها الرسائل التى كان « سانت بيث » يبعث بها إلى أصدقائه وكبار كتاب عصره والمعجبين به ... الخ وهى - بفضل الحواشى التى أضافها « بونرو » - منجم للمعلومات التى لا يستغنى عنها كل من يعكف على دراسة تاريخ الفكر فى فرنسا خلال الفترة التى عاشها « سانت بيث » :

* * *

فى أغسطس ١٨٤٩ عاد « سانت بيث » إلى باريس بعد أن صرف عاماً كاملاً فى لياج (Liège) ببلجيكا محاضراً فى الأدب الفرنسى بجامعة . كان قد استقال من وظيفته بمكتبة « مازارين » قبيل رحيله إلى بلجيكا ، فلما رجع إلى باريس عاوده القلق من جديد لأنه لم يكن يملك مورداً ثابتاً يستطيع أن يعتمد عليه فى حياته . صحيح أن له قلمه ، وأن لديه مادة ضخمة عن الأدب الفرنسى فى مجموعه كدسها إبان إعداد محاضراته فى جامعة « لياج » ،

ولكن كان لا بد من فرصة توائمه ليستطيع أن يستغل كل هذا فى كفاحه من أجل الحياة ... وتسنع فعلاً هذه الفرصة المرجوة حين يعرض عليه « فيرون » (Véron) ترحيبه بأن ينشر له كل أسبوع مقالاً أدبياً فى صحيفة « كونستيتيونييل » (Le Constitutionnel) التى يديرها ... ويقبل « سانت بيث » هذا العرض ، عازماً على ألا يمحك فى عمله الجديد إلا سنة واحدة ! .. إلا أن النجاح المنقطع النظير الذى ستحرزه باطراد مقالاته سيربط بها مصيره بالرغم من الجهود المضنية التى سيبدلها فى إعدادها ، والتى ستجعله كثيراً ما يشكو فى رسائله من « سخرة رجل الأدب الكادح » .. هذه المقالات هى التى يُطلق عليها « أحاديث الاثنين » لأنها كانت تظهر يوم الاثنين من كل أسبوع ... ظهرت الأولى منها فى أول أكتوبر عام ١٨٤٩ ، وظهرت الأخيرة فى ٢١ نوفمبر عام ١٨٦٨ ، أى قبل وفاة الكاتب الكبير بعام واحد ، ولم تتوقف إلا خلال الأعوام الأربعة التى قضاها سانت بيث فى التدريس بمدرسة المعلمين العليا بباريس ، أى فى الفترة بين عامى ١٨٥٨ و ١٨٦١ .. من هنا جاء احتجاجه فى تلك الفترة بمثابة حد فاصل : المقالات التى نُشرت قبله تسمى « أحاديث الاثنين » ، وتلك التى ظهرت بعدها يُطلق عليها « أحاديث الاثنين الجديدة » : الأولى تملأ خمسة عشر جزءاً ، والآخرى تقع فى ثلاثة عشر ؛ وهى لم تظهر جميعاً فى صحيفة (Le Constitutionnel) وإنما نشر شطر كبير منها فى صحيفة « لومونيتر » (Le Moniteur) ؛ وفى كلا المرحلتين - تلك التى سبقت التدريس بكلية المعلمين ، وتلك التى تلتها - بدأ « سانت بيث » بصحيفة (Le Constitutionnel) ، وانتهى بصحيفة (Le Moniteur) بل ونشر بعض هذه « الأحاديث » أيضاً فى صحيفة « لوطان » (Le Temps) ... محاضراته فى جامعة

« لبيع » كان يلقيها في أيام الاثنين، و« أحاديث الاثنين » امتداد لها من حيث أنها شبيهة بالمحاضرات ، وإن كان صاحبها لا يلقيها بصوت مرتفع من فوق المنصة ، وإنما يمنحها شكل الأحاديث و « يلقيها بصوت خفيض » في غير زهو ولا تألق !

ويبدو أن « سانت بيث » سعد أما سعادة بهذه الفرصة التي واته في مجال النقد الأدبي ، إذ قال ما نحصر هنا على الاستشهاد به ، لأنه يدلنا على المنهج الذي اعتمد السير عليه في « أحاديث الاثنين » : « .. في الواقع لقد كانت هذه رغبتى .. منذ وقت طويل كنت قد أملت أن تسنح لي فرصة لأن أصبح ناقدًا على النحو الذي أفهمه بأنضج وربما بأجسر ما حققته بالسن والتجارب ... لقد شرعت إذن للمرة الأولى في إنتاج نقد واضح صريح . »

وبعد أن ذكر بأنواع النقد التي زاوها قبل ذلك : نقد معركة جدلي مع الرومانسيين ، وأكثر جيدة وتصويري بعد ثورة ١٨٣٠ ... بعد ذلك يقول : « إن الزمن يقسم من جديد ، وإن العاصفة والصخب في الشوارع يجبران كل شخص على تضخيم صوته ، وإن تجربة حديثة تزيد من احساس كل عقل بالخير والشر ، بالعدل والظلم ، ولذا فقد اعتقدت أن هناك وسيلة لأن أضعف جسارتي ، دون أن أخل بقواعد اللياقة ، ولأن أقول في النهاية بوضوح ما يبدو لي إنه الحقيقة عن الأعمال والكتّاب » ... في « أحاديث الاثنين » يعمد « سانت بيث » إذن إلى النقد المتحرر ، أما في « أحاديث الاثنين الجديدة » فيظهر مناصراً للامبراطورية الثانية (عهد نابليون الثالث) وإن كان لم يحد عن دوره كناقد موجه وأخلاقي عميق : صحيح أنه يتغنى بمجد الامبراطور ولكنه يعود كثيراً إلى فكرة عزيزة على نفسه مؤداها أن نظاماً حكماً ليتحتم عليه أن يرفع الآداب ؛ ويردد كثيراً أن

مهمة الناقد هي الحكم على الكتّاب وتوجيههم ... وهو يظهر هنا وهناك أستاذ النقد بلا جدال ، يقول : « إنني أشكر الضرورة ، هذه المهمة الكبرى ، لأنها أجبرتني فجأة على أن أتحدث إلى الناس جميعاً ، وإن أنكلم بلغتهم » .

و « أحاديث الاثنين » لاتنصب على الأدب وحده ، وإنما على التاريخ والفلسفة والفن أيضاً ... وهي لاتتناول كبار الكتّاب وحدهم ، وإنما تشعب بحيث تشمل كذلك كتاباً من المرتبة الثانية كان « سانت بيث » يختارهم ليوجه اهتمامه إلى ابراز مظاهر تعقد البيئات التي عاشوا فيها والمشاكل التي حاولوا حلها ... إنها كما يقول « ماكسيم لوروا » (Maxime Leroy) : « عمل فريد بين الأعمال التي انتجها القرن التاسع عشر ... فيها قصة وفن وفلسفة واشتراكية وتاريخ وهجاء وعلم نفس ، وكل ما يجعلها نافعة وناطقة بالحياة ، مهما اختلف القراء من حيث نوع تخصصهم ، ودرجة فضولهم ، وأسلوب حياتهم »

* * *

عرف القرن التاسع عشر في فرنسا اتجاهات متعددة في النقد الأدبي ؛ وهي اتجاهات عاصر سانت بيث معظمها ، ولكنه لم يكد يبلغ نضجه ويبلور نظرياته ويطبّقها حتى أخذ ضوء الأسماء اللامعة الأخرى يشحب باطراد ... كان « فيلمان » (Villemain) يرى أن الأدب هو التعبير عن المجتمع ، فوحد بين النقد والتاريخ محاولاً إبراز التأثير المتبادل بين المجتمع والكتّاب ... إنه يمثل إذن النقد التاريخي ... وكان « سان مارك جيراردان » (Saint-Marc Girardin) يتخير في نقده أنواعاً من الانفعالات ، ويبين كيف تحدث عنها مختلف الكتّاب من قدامى ومحدثين ، ليستخلص في النهاية مجموعة من الحقائق الأخلاقية . النقد بالنسبة إليه وسيلة والأخلاق غاية ... إنه يمثل إذن النقد الأخلاقي .

... وهو موضوعى ومرن فى موضوعيته : إن أحسن خطأ حكم من أحكامه اعترف به وعدله . . . وهو يمتد شيئاً اسمه المذاهب لأنه يرتاب فيها ؛ ولقد ضاعف من هذا الارتباب تجربته العملية العابرة مع بعضها . إلا أن سلامة نظرياته وتماسكها جعلاً منه فى النهاية صاحب مذهب إلى حد كبير . يقول عنه « تين » (Taine) : « ما من شك فى أنه لم يعرض مطلقاً مذهباً من المذاهب ؛ فان ناقداً مثله يخشى خطورة التأكيدات الواسعة الدقيقة . . . يخشى أن يسئ إلى الحقيقة بحبسها فى صيغ معينة . ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من كتاباته مذهباً كاملاً لقد كانت لديه جميع المعارف المفصلة التى تقود إلى النظرات الشاملة » .

و « سانت بيث » يدرك رسالة النقد الصحيح ، وقد شرفها إذ أداها على الوجه الأكمل ، يقول : « إنى أرى فى النقد شيئين يبدوان متعارضين بالرغم من أنهما ليسا كذلك : الناقد ليس إلا رجلاً يحسن القراءة ، ويعلمها للآخرين . . . والنقد كما أفهمه وكما أود أن أزاوله ابتكار وخلق مستمر » ، ويقول فى مكان آخر : « إن الناقد وحده لا يفعل شيئاً ولا يستطيع شيئاً . . . والنقد الجيد لا يؤثر إلا بفضل اتفاقه مع الجمهور وتعاونه معه . . . وأستطيع القول إن الناقد ليس سوى سكرتير الجمهور ، ولكنه سكرتير لا ينتظر أن يملأ عليه ، بل يخمن ، ويوضح ، ويصنع كل صباح فكرة الناس جميعاً » .

مثل هذه النظرة إلى مهمة النقد تستتبع عند صاحبها التفكير فى المنهج الذى يتبعه ؛ ولقد كان « لسانت بيث » منهج حدده فى مستهل حياته العملية وظل يطبقه بعد ذلك . قال : « حين تشرع فى الكلام عن كاتب من الكتاب ، عليك أن تبدأ بقراءته بنفسك قراءة واعية ، وأن تدون الأجزاء المميزة له ، وأن تسجل مذكراتك . . . عليك بعد ذلك أن تبسط بمهارة الصفحات المقارنة التى أعدتها عن هذا الكاتب ، وأن

وكان « نزار » (Nisard) يرى أن للنقد مثلاً أعلى ؛ ما يقترب منه يعد جيداً ، وما يبتعد عنه يعتبر رديئاً . . . إنه إذن يمثل النقد العقيدى . . . ثم جاء « تين » (Taine) — وسانت بيث فى أوجه — فاعتزم تطبيق وسائل العلم على النقد الأدبى ، وكان كل همه منصباً على البحث عن « الملكة المسيطرة » عند الكاتب الذى ينقده (La faculté maîtresse) ، لأنها تفسر كل شيء غير ما . . . إنه إذن يمثل النقد العلمى . . . فأين « سانت بيث » من كل هذا ، وما منهجه ، وطبيعة نقده ، ونتائج طريقته المبتكرة ؟ — هذا ما سنحاول إبرازه فى الجزء التالى من البحث .

لكى نفهم نقد « سانت بيث » ينبغى أولاً وقبل شيء أن نفهم الجو الوجدانى الذى عاش فيه ، ألا ننسى أهم مقومات شخصية الرجل . . . سانت « بيث » — كما رأينا — يجمع بين الفضول العلمى النهم وبين دقة الملاحظة المتأمله ، ويمكن القول إنه ذو عبقرية بصرية . وهو يهيم بالحقيقة فى ذاتها ، كيفما كان شكلها . . . وهيامه بالحقيقة يجعل منه — فى نفس الوقت — إنساناً واقعياً يرى الناس كما هم ، والأشياء مجردة من كل ما عسى أن يعدل — بالتزويق أو بالتشويه — طابعها الأصيل ، وهذه الواقعية تجعله يزن بميزان دقيق قدرات الناقد كإنسان مهما كان هذا الناقد حاد الذكاء ، عميق الفكر ، صادق الحكم . يقول : « ما من شخص يحق له أن يقول « إنى أفهم الناس » . . . وكل ما فى وسعه أن يقوله هو : « إنى فى طريقى إلى فهمهم » . . . وهو غيور على استقلاله فى الرأى ، لا يبيح لأى اعتبار أن يؤثر فيه مهما كان هذا الاعتبار يتعلق بكاتب عظيم ذاعت شهرته ورسخ مجده فى أذهان الناس ؛ من هنا أغضب كثيرين من رجال الأدب والدين والسياسة كانوا قد ظنوا فى وقت ما إمكان استمالته ففطنوا إلى عجزهم بعد ذلك . . . وهو من أجل هذا يعتز بكرامته لا يفرط فيها مهما اصطدمت بخاطر ضياع لقمة العيش

بما فيه من صراحة وبدائية ، قبل أن يختلط به كل ما هو مكتسب ، وربما مصطنع .

* * *

كان « سانت بيث » في الطور الأول من حياته كناقذ يعتمد في دراسة الإنتاج الأدبي على تحليل حياة صاحبه . . . وكان في ذلك مبتكراً من غير شك : عندما أطلع « ألفريد دي فيني » (Alfred de Vigny) في عام ١٨٢٩ على مقاله عن « راسين » (Racine) ، كتب إليه يقول : « حقاً ، لقد خلقت نقداً سامياً هو ملكك وحده ، وإن طريقتك التي تجعلك تنتقل من الرجل إلى عمله ، وتبحث في أحشائه عن أصل إنتاجه لم يمنع لا ينضب للملاحظات الجديدة ونظرات عميقة » . وظل « سانت بيث » يتطور في منهجه في النقد حتى صار في « أحاديث الاثنين » شبيهاً بعلماء الأحياء . . فما معنى هذا ؟

قال « جورفيل » (Gourville) : « كثيراً ما راودت عقلي فكرة مؤداها أن للناس تقريباً خصائص كخصائص الأعشاب » ، وقرأ « سانت بيث » هذه العبارة فأثارت له الطريق لتطوير منهج كان يطبقه بطريقة غريزية ، يقول : « إن هذه الملاحظة إن فهمها الشخص فهماً جيداً ذهبت به بعيداً ، فمؤداها أننا يمكننا — كما هو الحال بالنسبة لعلم النبات الذي يصنف النباتات — أن نصنف كذلك العقول . وإنى لأعتقد ذلك جيداً . . . سوف يظهر في يوم من الأيام متأمل كبير يصنف العقول تبعاً لطبائعها . . . وربما يأتي ، يتولى إنتاجنا — نحن الأكثر تواضعاً — إعداد العناصر له ، ووصف الأفراد وصفاً دقيقاً بتقريبها من أنماطها الحقيقية : وهذا هو ما أحاول عمله باطراد . . . وهكذا أخذ « سانت بيث » يتطور تدريجياً من محلل للنفوس إلى « عالم أحياء » في مجال العقول . يقول في مذكراته : « لم يعد لي سوى متعة وحيدة : إنى أحلل ، أتخير

تقرأها دون أن تفهم نفسك إلا من بعيد . . . وهكذا ينتهي الأمر به إلى الإفصاح عن نفسه وإلى الارتسام في أذهان مستمعيك » . . . وإذا كان للكاتب تلاميذ ومعجبون فيمكن كذلك أن ندرسه من خلالهم لأن « العبقريّة ملك تخلق شعباً ، والتلميذ حين يبرز في غلو ملامح أستاذه إنما يعيننا على الاحساس بعبوبه إحساساً أقوى » . . . على أن منهج « سانت بيث » لم يكن جامداً بحيث خضع له خضوعاً أعمى ، وإنما هو منهج مرن استطاع أن يطويعه بفضل إحساسه العميق بالفن ؛ من هنا وفق سانت بيث في أن يمنح نقده نوعاً من السحر ، يقول : « إن ما أردته في النقد هو أن أدخل فيه نوعاً من السحر ، وفي نفس الوقت قدراً من الحقيقة أوفر من ذلك القدر الذي كان يوضع فيه من قبل . . . وبكلمة واحدة أردت أن أشيع فيه الشاعرية وبعضاً من السيكلوجية » . . . بل كثيراً من السيكلوجية ! . . . فلقد كانت دراسة النفس البشرية تحتل المرتبة الأولى من اهتمام « سانت بيث » ، قبل دراسة الأدب في ذاته . . . أراد أن ينزع النقاب عن الطبيعة البشرية ، فبحث عن الجزء الدائم فيها الذي يخضع للملاحظة الثابتة في كل العصور ، ليرى في الإنسان في النهاية كل الإنسان . . . ما من شخصية يعرفها أو يصادقها أو يدرسها إلا ويتسلل إلى أعماقها ، لينصت إلى « همسات أحاسيسها الغامضة » ، محاولاً بذلك أن يكتشف « القاسم المشترك الأعظم » بين الناس جميعاً ، من هنا كان — كما قيل عنه — هاوي نفوس . أما إن كان موضوع دراسته نابغة من النوابع أو عبقرية من العباقرة ، فانه لا يكتفى باستعراض مظاهر نبوغه أو عبقريته وبتحليلها ، وإنما يتوغل في الموهبة ليصل إلى أصولها وليدرس مرحلة شبابها ، لأن النبوغ في هذه المرحلة يكون أصدق منه في أية مرحلة أخرى ، يقول : « . . . إنى لا أعرف متعة يمكن أن يشعر بها الناقد أرق من تلك التي يجنيها حين يفهم نبوغاً شاباً ، ويصفه

العضوية . يقول : « أيها الأطباء والأخلاقيون ،
لا تنسوا أنه كان مصاباً بمرض في الكبد . . . » .

* * *

ولكن ما معنى « تاريخ طبيعى فى الأدب » ؟ -
معنى هذا أولاً أن يحاول النقد التوصل إلى مثل ما يتوصل
إليه العالم الفيزيولوجى ، مع الفارق . . عليه أن يدرس
الكاتب من خلال إنتاجه وعقله وفى ضوء فيزيولوجيته
بالمعنى المادى الدقيق لهذه الكلمة . . وعليه أن يقسم
الكتاب تبعاً لأنماط إنسانية ، أو أوسر ، كما يفعل علماء
الأحياء بحيث تحبى مجاميع متميزة من حيث الأصل
والأخلاق . . ويعين على هذا تحرر الناقد من الانفعالات
التي تصدر عن الذوق ، واستبعاده لاعتبار اللذة التي
تأتى بقراءة العمل الأدبى . . ويشرح « سانت بيث »
بدقة كيفية الانتقال من دراسة الفرد إلى دراسة
« الأسرة العقلية » فيقول : « إن الأسر الحقيقية
و « الطبيعية » للبشر ليست مفردة فى العدد . . وإذا
ما دققنا النظر وأجرينا تجاربنا على عدد كاف منهم أمكننا
أن نعرف بأن طبائع العقول المختلفة تنتمى إلى بعض
أنماط . . فثلاً هذا المعاصر الوجيه الذى درسناه جيداً
وفهمناه يشرح لنا مجموعة كاملة من الأموات ؛ ذلك
لأن التشابه الحقيقى بينه وبينهم واضح جلى ، ولأن
بعض خصائصهم « الأسرية » تلفت النظر ؛ وهذا
يشبه تماماً ما يفعله علماء النبات والحيوان بالنسبة للفصائل
النباتية والحيوانية . . إن هناك تاريخاً طبيعياً للعقول .
وإن الفرد الذى نلاحظه جيداً يجعلنا ننسبه إلى الفصيلة
التي حددناها ، ويضعاف الضوء الملقى عليها » .

صحيح أن العقول الفذة تتجول بين أسر متعددة ،
ومجموعات مختلفة . . ولكن سانت بيث فى تتبعه
لتطورها يهتدى إلى ذلك الشيء الذى يستمر عالقاً بها
مهما تعددت رحلاتها ، والذى يبقى على الصلة الوثيقة
التي تربطها بما تنتمى إليه من أنماط إنسانية ، « فثلاً

نباتات لدراستها ، إلى « عالم أحياء » العقول ؛ وإن
ما أتوق إلى إنشائه هو التاريخ الطبيعى الأدبى . . .
ويتأجج طموحه الشخصى وطموحه من أجل العلم
فيقول : « إن ما أصنعه الآن هو التاريخ الطبيعى
الأدبى . . . إننى إن صرت فى ميدان تاريخ الأدب وفى
النقد تلميذاً لبيكون (Bacon) لبلغت الحد . . أتمنى
أن تعين جميع هذه الدراسات الأدبية يوماً على إرساء
الأساس لتصنيف العقول » . . ثم يشعر بإيجابية الجهود
التي يبذلها فيقول بلهجة مفعمة بالثقة : « إن تاريخ
الأدب يُصنع اليوم كما يصنع التاريخ الطبيعى ، أى
بالملاحظات والمجموعات » .

ومن المؤكد أن دراسة « سانت بيث » للطب
كانت من أهم عوامل تطور منهجه فى النقد . . فلقد
كان دائماً حريصاً على دراسة تأثير الظواهر المادية فى
ظواهر النفس الكامنة ، وعلى استخلاص فعل الأمزجة
فى العقول ، وعلى اكتشاف تأثير الطبيعة الفيزيكية على
الطبيعة الخلقية ، بحيث استطاع فى أواخر حياته أن يسمي
إنتاجه النقدي « دراسة حقيقية فى فيزيولوجيا الأخلاق » .
وهو من أجل هذا كان يشرح الأموات والأحياء على
السواء ! . . كتب يوماً إلى صديقه « شانتولوز »
(Chantelauze) يقول : « إنى أزعم فيما يتعلق
بالمريض الذى أودى بحياة « كاميل جوردان » (Camille
Jordan) أنه كان مرضاً من أمراض الصدر .
ولست أتذكر إذا كان ما حملنى على هذا الاعتقاد
هو شهادة مباشرة ، أو إحدى الذكريات ، أو استنتاج
من الاستنتاجات . وهذه هى النقطة الوحيدة التي
أطلب إليك رداً بشأنها » . . . وكان « أرمان
كاريل » (Armand Carrel) معروفاً بشدة غضبه
وسرعته ، ولكن « سانت بيث » هو وحده الذى
حاول أن يرد هذا الاستعداد النفسى إلى عوامله

هذا الشاعر أو المؤرخ أو الخطيب مهما تألق الشكل الذى يتخذه سيظل كما خلقته الطبيعة مرتجلاً للعبقريّة... أسر ومجموعات !... ماذا يقصد « سانت بيث » بكلمة مجموعة ؟ - إنها « رابطة طبيعية شبه تلقائية تجمع بين مواهب شابة لا تتشابه بالضبط ، ولا تنتمى إلى أسرة واحدة ؛ ولكنها انطلقت معاً ، وفي ربيع واحد .. وفتحت تحت نجم واحد .. وهى تحس أنها ولدت بأذواق واستعدادات متباينة ولكن من أجل رسالة مشتركة » معنى هذا مثلاً أن راسين وكورنى ومولير ولا بروير ولا فونتين وغيرهم من الكلاسيكيين يكونون مجموعة مميزة ، وأن هوجو ولا مرتين وألفريد دى موسيه ، وألفريد دى فينى ، وغيرهم من الرومانسيين يألّفون مجموعة أخرى .. الخ .

وتصنيف العقول لا يمكن أن يحققه فرد واحد أو أفراد ، وإنما تتكفل به جهود الأجيال المتعاقبة .. هو فى هذا مثل العلوم التى تمهد محاولات المشتغلين بها الطريق لمن يأتون بعدهم .. علينا إذن أن نسجل ملاحظتنا اينتفع بها أحفادنا ، فقد تعيينهم على التوصل لنتائج نعجز نحن عن الحصول عليها . وهكذا نجد أن « سانت بيث » لم يزعم أنه قادر على استخلاص قوانين محددة ، وإنما هو يعلن صراحة محاولته « فهم أكبر عدد من مجموعات العقول ، من أجل علم أعم يتكفل آخرون من بعده بتنظيمه » . وحتى بالنسبة للأجيال القادمة لا يخفى « سانت بيث » إحساسه بصعوبة المهمة ، يقول : « إذا فهم جيداً - من الوجهة الفزيولوجية - الأصل والسلف والأجداد ، ألقى ذلك ضوءاً كبيراً على الخاصية الجوهرية الكامنة للعقول .. ولكن هذا الأصل العميق كثيراً ما يتوارى .. » الدور الذى يقوم به التاريخ إذن فى هذا المنهج دور حيوى : فلكى نصنف العقول لا بد من مقارنتها ؛ ولكى نقارنها لا بد من معرفتها ؛ ولكى نعرفها لا بد من الالتجاء إلى التاريخ . من هنا نجد أن « سانت بيث » كان كلفاً به .

يهم به ، ويوصى بالرجوع إليه .. كتب مرة إلى صديقه يقول : « إني أهنتك على توجيه عقلك نحو قراءات تاريخية . وعلى ترك الميتافيزيقا تسريح قليلاً . ما إن يهم الإنسان بالتاريخ حتى تشع الحيوية فى كل شئ .. ويجد الفصول أمامه مجالاً رحباً .. » .

* * *

حين نادى « سانت بيث » - فى أحاديث الاثنين - بنظرية « التاريخ الطبيعى للعقول » لم يعدل عن منهجه القديم فى النقد ؛ ذلك المنهج الذى يؤسس تفسير الإنتاج الأدبى على دراسة حياة الكاتب .. وإنما جاءت نظريته نتيجة لتطور هذا المنهج ، وفى نفس الوقت وسيلة فعالة لبلورته وتعميقه .. كان « سانت بيث » - فى « صور معاصرين » مثلاً - يرى أن الكاتب يخضع لمؤثرات ثلاثة يتحتم على النقد أن يتبينها ، وأن يتناولها بالدراسة : « الحالة العامة للأدب حين استهل إنتاجه ، والثقافة التى تلقاها ، والمواهب التى رزقها » .. ثم صار فيما بعد أكثر طموحاً وأكثر دقة .. صار يدعو الناقد إلى « أن يضع عدسته المكبرة على عينه ، وأن يحمل مشرطه فى يده » إذ يتحتم عليه أن يبحث فى الدم وفى المزاج .. ظل يقول : « إن الأدب ، إن الإنتاج الأدبى بالنسبة إلى لا يتميز مطلقاً ، أو على الأقل لا ينفصل عن بقية الرجل .. أستطيع أن أتذوق إنتاجاً ما ، ولكن يصعب على أن أحكم عليه حكماً مستقلاً عن معرفة الرجل نفسه .. ويمكننى أن أقول : « هذه الثمرة من تلك الشجرة » . وهكذا تقودنى الدراسة الأدبية طبيعياً إلى الدراسة الأخلاقية » .. ولكنه وسع فيما بعد مجال هذه الدراسة فصار يقول : « .. بعد أن يتثبت الناقد من أصل الرجل العظيم موضوع دراسته ، ومن أقربائه المباشرين ، وبعد أن يلم بثقافته ودراساته ، يبقى أن يفحص الوسط الذى عاش فيه ، والذى ساعد على نمو عقله ؛ اللهم إلا إذا كان قد نبغ بصورة فجائية بلا إعداد ، بحيث جاء هو نفسه مركزاً تجمع حوله

للعقول ، وتُعرف أقسامها الأساسية . وحينئذ ستؤدى معرفة الخاصية الجوهرية لعقل من العقول إلى استنباط خصائص أخرى كثيرة .

* * *

« سانت بيث يحدد لنا طريقاً ، ويترك لنا حريتنا : منه نتلقى بعض الحكم الممتازة ، ومعها نكتسب بعض عادات طيبة ، وبعد ذلك نفعل ما نريد ، وكيفما نريد فلا شئ فيه تعسفى أو استبدادى . . . إن سانت بيث أستاذ لا يطلب منا إلا العهد بالتمسك بالحقيقة . . . لقد أطل على الإنسانية من عل ، وتابع أطوارها بنظرة طويلة ثاقبة ؛ وبذلك أسهم اسهاماً قيمياً فى خلق مفهوم واقعى للحياة فى أعماق الفكر . . . وهو كما يقول « لاروميه » (Larroumet) أكمل معلم يلقي تقديس الحقيقة وحب الآداب .

و « أحاديث الاثنين » عمل أدبى خالده . : توفى « سانت بيث » منذ قرابة قرن من الزمان ، ومع ذلك فلا يزال هذا « الحديث » أو ذاك يخدم الموضوع الذى يطره أكثر أحياناً من كتب كاملة تخصص له . و « الحديث » يرجع إليه دائماً ، أما هذه الكتب فقد تظهر اليوم وتموت غداً . . . يقول « جوستاف لانسون » (Gustave Lanson) : « أحاديث الاثنين ستظل تقرأ طويلاً ؛ ستظل تقرأ ما بقيت لغتنا » .

وكبار النقاد يعترفون بفضل « سانت بيث » عليهم « تين » (Taine) — فى القرن الماضى — يقول عنه : « إننا جميعاً تلاميذه » . . . و « إميل هنريو » (Emile Henriot) يتحدث عنه منذ أعوام فيقول : « الأستاذ ، أستاذنا . . . » .

وإذا كان نقد « سانت بيث » عالمى ، فلأنه قبل كل شئ إنسانى . ولعل خير ما يذكر فى هذا الصدد قول « تين » : « إن سانت بيث لم يخدم سوى العقل

آخرون » . . . كما صار يوصى النقاد بما كان يفعلوه هو : محاولة العثور على إجابة دقيقة عن عدد لا يحصى من الأسئلة التى تتعلق بالكاتب : « ماذا كان رأيه فى الدين ؟ . . . أى انفعال كان يحس أمام منظر الطبيعة ؟ . كيف كان يتصرف إزاء النساء ؟ . كيف كان سلوكه بالنسبة للمال ؟ . . . أكان غنياً ؟ . . . أكان فقيراً ؟ . . . ماذا كان « الريحيم » الذى يسير عليه ؟ . . . ماذا كانت طريقته فى حياته اليومية ؟ . . . ماذا كانت رذيلته أو مواطن الضعف فيه ؟ . . . وحين ينصب النقد على إحدى النساء ، تبذ هذه الأسئلة : « هل كانت جميلة ؟ . . . » « هل أحببت فى حياتها ؟ . . . » . وهكذا يبحث « سانت بيث » عن الرجل الذى يحتجب وراء الكاتب ، لأن الكتب لا تحوى كل حقيقته . . . انه يستجوب الحياة . . . ويتذوق بوجه خاص كتب الرجال الذين ليسوا كتاباً محترفين ، لأن أدهم أكثر تلقائية ، وأقرب إلى الحياة ، وأصدق فى التعبير عن مشاعر النفس . . . ومذهب كهذا أهم مميزاته أنه واقعى ، تعبiry ، سيكولوجى ، أخلاقى . . . إنسانى وكفى : يقول أحد النقاد : « إن هذه الشخصيات التى جردها من ثيابها تتكلم ، وتجول أمامنا . . . ونحن نراها كما رآها هو ، عارية . . . « لازماتها » التى لاحظناها تدهشنا كما أدهشته . . . حتى لثغاتها ، حتى أصواتها وصلت إلينا كما سمعها هو . . . » . . . ويقول آخر إن إنتاج « سانت بيث » يضم أدباء ومؤرخين ومصورين وسياسيين وعسكريين ووجوهاً مجيدة ، وأخرى مغمورة أو مجهولة . . . إنه متحف عجيب للإنسانية ، أو على حد تعبير « تين » (Taine) « مجموعة من أعشاب التجارب » . . . ولكنها « أعشاب » تستعيد نضرتها وألوان الحياة . . . هذا المتحف الإنسانى يحوى مادة قيمة لتجارب أخرى ستؤدى فى المستقبل إلى نشأة علم جديد : « سياتى يوم — نخيل إلى أننى لمحته من خلال ملاحظاتي — يتكون فيه علم تتحدد فيه الأسر الكبرى

الإنسانى . . . وهو من بين الخمسة أو الستة الذين خدموه أكثر من غيرهم فى فرنسا خلال هذا القرن (التاسع عشر) .

* * *

تذييل

أولاً - عن منهج «سانت بيثف» :

عن الكتاب وإنتاجهم والدراسة الأخلاقية :

« . . . نحن لا نملك الوسائل الكافية لتأمل القدامى . كل ما فى وسعنا هو أن نعلق على الإنتاج ، ونعجب به ، ونتخيل الكاتب أو الشاعر من خلاله . . هذا كل ما تسمح به حالة معلوماتنا الناقصة وفقر المصادر . . إن ثمة نهر طويل - لا يمكن عبوره فى معظم الحالات - يفصلنا عن كبار القدامى ؛ فلنحبيهم من ضعفنا .

« أما بالنسبة للمحدثين ، فالأمر مختلف تماماً ؛ وإن النقد - وهو يعد منهجه تبعاً للوسائل - يلتزم فى هذه الحال بواجبات أخرى . وإن فهم لإنسان جديد وفهمه بعمق ، لا سيما إذا كان هذا الإنسان شخصاً ذائع الصيت ، لهو شئ عظيم لا ينبغى إغفاله . . »

وبعد أن يتحدث «سانت بيثف» عن ذلك اليوم الذى سوف ينشأ فيه علم يقسم العقول إلى أسر ، يقول : « . . . وكيفما كان الأمر ، فإنى أتصور أننا سنتوصل مع الزمن إلى توسيع علم الأخلاق ، إنه اليوم فى مرحلة شبيهة بتلك التى كان عليها علم النبات قبل جوسيه (Jussieu) ، وعلم التشريح قبل كوفيه (Cuvier)

ولكن هذا العلم سيبقى دائماً « فناً يحتاج إلى فنان ماهر ، شأنه فى ذلك شأن الطب الذى يتطلب من الذى يزاوله كياسة طبية ، والفلسفة التى ينبغى أن تحم توافر الكياسة الفلسفية فى هؤلاء الذين يزعمون أنهم فلاسفة ، والشعر الذى يأبى أن يمسه غير الشعراء » .

* * *

عن الأصل والقرابة :

« . . . من المؤكد أنه يمكن التعرف ، يمكن العثور على الرجل العظيم - جزئياً على الأقل - فى والديه ، ولا سيما فى أمه . . وكذلك فى إخوته وأخواته ، بل وفى أبنائه . . . إن فيه علامات أساسية كثيراً ما تكون مقنعة بسبب شدة تركيزها والتحامها معاً . . إلا أن جوهر هذه الملامات يوجد عارياً وفى حالة بساطة عند الآخرين الذين يرتبط بهم برابطة الدم : إن الطبيعة وحدها قد تكفلت بتهيئة وسائل التحليل . . »

* * *

عن دراسة تطور النبوغ :

« ليس المهم فحسب أن نفهم موهبة من المواهب فى طور إنتاجها الأول ، وبعد بلوغها ونضجها ، وإنما هناك مرحلة أخرى حاسمة ينبغى اعتبارها إن أريد فهم هذه الموهبة فهماً شاملاً : هذه المرحلة هى التى تفسد فيها الموهبة وتنحرف . . ومهما استعملنا ألفاظاً أكثر ترفقاً فإن هذا لن يغير شيئاً فى الحقيقة التى مؤداها أن كل نبوغ ينتهى إلى هذه المرحلة . . يوجد فى حياة كتاب كثيرين لحظة يضل فيها النضج المرجو طريقه ، أو تبلغ فيها الموهبة النضج وتتجاوزها ، أو يستحيل فيها الإفراط فى المحاسن إلى عيوب . . لحظة بعض المواهب يجمد فيها ويحجب ، وبعض آخر يتراخى . . ومنها ما يصلب أو يثقل أو يحنق بحيث تستحيل فيه الابتسامة إلى تجميد . . وبعد أن نكون قد درسنا الموهبة فى مرحلة شبابها وازدهارها ، علينا أن نفطن إلى المرحلة الأخرى التعسة التى يتغير فيها شكلها وتصبح بالشيخوخة شيئاً آخر .

« إن من بين طرق الشناء العادية فى عصرنا أن يقال لشخص من الأشخاص وهو يطعن فى السن : « إن نبوغك لم يكن فى يوم من الأيام أكثر شباباً منه الآن »

... لا تطيلوا الإصغاء إلى هؤلاء المداهنيين ، فإن هناك لحظة محتومة تظهر فيها شيخوخة النفس ... » .

* * *

عن محاولة فهم الكاتب :

يحدد « سانت بيث » مجموعة من الأسئلة يتحتم على الناقد أن يحاول العثور على إجابة عنها ليعينه ذلك على سبر غور الكاتب الذى يدرسه (أشرنا إلى هذه الأسئلة فى سياق الحديث) ، ثم يقول : « ما من إجابة عن سؤال من هذه الأسئلة لا تهم الحكيم على الكاتب وعلى كتابه نفسه ، اللهم إلا إذا كان هذا الكتاب فى الهندسة البحتة مثلاً .

« كثيراً جداً ما يحدث أن بمعن الكاتب فى الغلو أو فى تكلف مضاد لرذيلة فيه ، أو لنزعة خفية له ، بغية إخفائها وتغطيتها . وأثر هذا وإن كان مقتعاً أو غير مباشر إلا أنه يمكن إدراكه والتعرف عليه .. كل ما ينبغى عمله هو أن يقلب العيب ! ، فلا شئ أشبه بالفجوة من الانتفاخ .

* * *

عن النقد الطبيعى أو الفيزيولوجى :

« لا ينبغى أن يخيف هذا اللفظ أحداً (لفظ فيزيولوجى) .. لا ينبغى أن يندد أحد بمادية مزعومة مثلاً حدث فى مكان ما ... فليس هناك ما يبرر مثل هذا الاتهام ، إن فهم المنهج فهماً دقيقاً ، وإن استخدم كما يجب .. ذلك لأننا مهما عينا بالتغلغل فى الإنتاج الأدبى ، وفى الأصول والجدور ؛ ومهما درسنا خصائص المواهب وأبرزنا الصلات التى تربطها بالأهل والمحيطين ، فإن هناك شيئاً سيظل مستغلقاً يستحيل شرحه هو كنهه العبقريه ... » .

* * *

ثانياً — نصان مختاران من « أحاديث الاثنين » :

الفريد دى موسيه المراهق العبقري

إن كل جيل كجيش من الجيوش يتحتم عليه أن يدفن أمواته ، وأن يمنحهم ما يدين لهم به من تكريم . ولن يكون من العدل أن يحتجب الشاعر الساحر الذى اختطفته يد المنون منذ حين ، دون أن يتلقى — وسط ما قيل وما سيقال من أحكام حققة وصادقة عن نبوغه — بعض كلمات الوداع من صديق قديم شهد خطواته الأولى . لقد كانت نغمة ألفريد دى موسيه الفاتنة معروفة لنا وعزيزة علينا منذ أول يوم ؛ وكانت قد ذهبت إلى قلوبنا بجدتها ونضارتها ؛ وكانت أوثق ما تكون صلة بالجيل الذى كنا نحن ننتمى إليه ، ذلك الجيل الذى كان أشد ما يكون شاعرية واستعداداً للإحساس والتعبير ! .. إنى لأتصوره الآن منذ تسعة وعشرين عاماً وهو يدخل دنيا الأدب ؛ كان ذلك أولاً فى حلقة فيكتور هوجو الخاصة ، ثم فى حلقة ألفريد دى فينى (Alfred de Vigny) والأخوين « ديشان » (Deschamps) . يا لها من بداية ! يا لها من خفة رقيقة لا تكلف فيها ! يا للمفاجأة التى أحدثها ، ويا للسحر الذى أثاره حوله بأول أشعار قرأها : « اندلسيه » (Andalouse) « دون باريز » (Don Perez) ، « جوانا » (Juana) ! كان ذلك الربيع بعينه ، ربيعاً كاملاً من الشعر يتألق أمام أعيننا .

لم يكن قد بلغ بعد الثامنة عشرة من عمره : جبينه ينم عن حيوية واعتزاز ، وجنته النضرة لا تزال تحتفظ بآثار الطفولة ... كان يتقدم بقدمين راسخين ، عيناه فى السماء كما لو كان واثقاً من النصر ؛ مليئاً بفخره بالحياة . ما من أحد كان يمكن أن تنم هيأته الأولى مثله عن العبقريه المراهقة . كل هذه المقطوعات المتألقة ، وهذه الينابيع الصادرة عن القريحة التى بلى نجاحها منذ

ذلك الحين ، والتي كانت مع ذلك جديدة في الشعر الفرنسي :

— أيتها الحب ، يا آفة الدنيا ، ويا أيتها الجنون الكريه . . .

— ما أجملها في المساء ، تحت أشعة القمر . . .

— أيتها الكهول المهدمون ، ذوو الرؤوس الصلعاء العارية . . .

وكل هذه الفقرات التي تبدو وكأنها تحمل طابع شكسبير ، وكل هذه الانطلاقات الجموحة وسط أنواع من الجسارة المثوبة والابتسامات ، وكل هذه الومضات من الحرارة والعاصفة المبكرة . . . كل هذا كان يبدو مبشراً لفرنسا بـ « بايرون » جديد . وإن الأغاني الوسيمة الأنيقة التي كانت تنطلق كل صباح من بين شفثيه لتجري تواء إلى شفاه الجميع ، كانت في مثل شبابه . أما الانفعال فكان يخمنه ، ويرتشفه بعنف ، ويريد أن يتقدمه . كان يلتمس سره من أصدقائه الأغني منه تجربة والذين لا يزالون مبتلن من أثر الغرق . . . وفي الملهى ، والاجتماعات ، والحفلات المرحية ، كان إن صادف اللذة لا يتعلق بها ، بل يحاول بالتفكير أن يستخلص منها الكآبة والمرارة . . . كان يقول لنفسه وهو ينكب عليها بجموح ظاهري — ليزيد من طعمها — إن تلك اللذة ليست سوى لحظة عابرة لا يمكن بعد حين علاجها ، وأنها لن تعود أبداً تحت ذلك الشعاع نفسه . . . وكان في كل أمر من أموره يريد أن يجيئ احساسه أقوى وأحد بالقدر الذي يتجاوب مع نفسه . . . كان يجد أن زهور يومه لا تكفيه ، ويود لو استطاع أن يقطف الزهور جميعاً ليشمها وليعبر تعبيراً أعماق عن روح عطرها .

ولقد اقترن أول نجاح حققه بهمَّ اعتراه . كانت هناك مدرسة جديدة ، مدرسة لا تسود غيرها من المدارس وإن كانت أكثر منها حظوة عند الناس . . . وبينما كان موسيه قد صدر عن نفسه فانه كان يمكن أن

يبدو وكأنه تفتح في ظل تلك المدرسة ؛ ولذا فقد حرص على أن يُظهر أن ذلك لم يحدث ، أو كان يمكن ألا يحدث ، وأنه لا يشبه إلا نفسه . وهنا أيضاً كان يسرع كذلك بفارغ الصبر من غير شك . . . ماذا كان يخشى ؟ إن تطور هذا النبوغ الممعن في الصراحة والحيوية كان يكفي لأن يفصح إفصاحاً تلقائياً عن ابتكاره . إلا أن موسيه لم يكن من هؤلاء الرجال الذين ينتظرون ثمرة الزمن وتعاقب الفصول . . .

(أحاديث الاثنين : الجزء الثالث عشر)

بلزاك مصور العادات

لقد كان بلزاك فعلاً مصور عادات هذا العصر ، وربما كان أقرب كتابه إليه ، وأكثرهم ابتكاراً وعمقاً منذ حدوثه وهو يعتبر القرن التاسع عشر موضوعه وهوايته ، فاندفع إليه بحمية ، ولم يخرج منه قط . إن المجتمع يشبه امرأة : إنه يريد مصوره ، ومصوره الذي يستأثر به وحده ؛ وقد كان بلزاك ذلك المصور . . . وهو في تصويره له لم يكن متأثراً مطلقاً بالتقاليد ، وإنما جدد وسائل ريشة هذا المجتمع الطموح المدلل وحيلها ؛ هذا المجتمع الذي حرص على ألا يبدأ تاريخه إلا ببدايته ، وألا يشبه أى مجتمع سواه . من أجل هذا ازداد إعزازاً لبلزاك .

ولد بلزاك في عام ١٧٩٩ ، وكان في الخامسة عشرة من عمره إبان سقوط الإمبراطورية : إذن فقد عرف العصر الإمبراطوري وأحسه بما تتميز به عين الطفولة من الفطنة والعبق اللتين يتكفل التفكير بأكملها فيما بعد ، وإن كان لا شيء يعدل ما فيهما من صفاء مبكر . قال أحد في مثل عمره : « كنت في طفولتي أتغلغل في الأشياء بحساسية من القوة بحيث كنت أشعر وكأن سلاحاً مرهفاً يدخل قلبي في كل لحظة » ؛ وهذا ما استطاع بلزاك أن يقول هو الآخر . وانطباعات الطفولة هذه حين تنتقل فيما بعد إلى الأحكام والصور

تمدها بمادة من الانفعالات الغريبة التي تضيء عليها
رقة وحيوية .

وبلغ سن الشباب إبان عهد عودة الملكية ، فاجتازه
وشاهده كله ربما كأحسن ما يشاهد الأشياء فناناً
متأمل ، أى من أسفل ، وسط الجموع ، بين الألم
والنضال ، بما للتبوغ والطبيعة من رغبات عريضة
كثيراً ما تتيح تخمين الأشياء المحرمة ، وتخيّلها ،
وتعمقها قبل أن تصبح في النهاية حقيقة واقعة . ولقد
أحب بلزاك ذلك العهد ، فقد بدأ يحقق الشهرة في نفس
الوقت الذي كان يستقر فيه النظام الجديد المنبثق عن
ثورة يوليو عام ١٨٣٠ . ولقد شاهد هذا النظام بقدّم
راسخة ، بل ومن عل إلى حد ما ؛ وحكم عليه بما فيه من
تناسق ؛ وصوّره تصويراً خلاّباً بأنماطه ، وأبرز ما فيه
من نقوش برجوازية . وهكذا نجد أن هذه العهود
الثلاثة المختلفة كل الاختلاف من حيث الشكل ، والتي
احتواها النصف الأول من هذا القرن ، قد عرفها
بلزاك ، وعاشها جميعاً ؛ كما نجد أن أعماله بمثابة مرآة
لها إلى حد ما .

مَن استطاع مثلاً أن يبذه في تصوير كهول
الإمبراطورية ونسائها الجميلات ؟ مَن استطاع أكثر
منه أن يمسّ مساً لذيذاً « الدوقات » و « الفيكونتات » في
أواخر عهد عودة الملكية ، تلك النساء التي كن في
الثلاثين من أعمارهن ، واللائي انتظرن ظهور من يتولى
تصويرهن بقلق غامض ، إلى حد أنهن حين صادفنه
سرى في أبدانهن ما يشبه شحنة كهربية من الاعتراف
بالجميل ! ثم مَن وفق أكثر منه في مفاجأة الطبقة
البرجوازية وتصويرها في قوتها وانتصارها في ظل
الأسرة التي أتت بها ثورة يوليو ١٨٣٠ ؟ ...

ها هو إذن مجال رحيب ، ينبغي أن نعترف بأن
بلزاك قد حدده لنفسه بكل اتساعه منذ البداية ، وبأنه
جال فيه ، ونقب في جميع أنحائه ، وكان يجده أضيق
من أن يرضى شجاعته وحميته . لم يكن يرضى بالملاحظة
والتكهن ، ولذا فقد كان في كثير من الأحيان يبتدع
ويتخيل ...

(أحاديث الأثنين : الجزء الثاني)

